مفهوم "الصَّنْعَة" عند عبد الرحمن شكري

.دراسة مصطلحية

The concept of "Linguistic craft" according to Abdel Rahman Shukri

- Terminological study -

د. محمد الصديق معوش1

تاريخ الإرسال: 2022/03/17	تاريخ القبول: 2022/03/29	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

نسعى في هذا المقال إلى دراسة مصطلح "الصنعة" في الخطاب النقدي عند عبد الرحمن شكري أحد رواد الشعرية العربية الحديثة باعتباره مصطلحا نقديا تراثيا قد وظفه الناقد في مقاربة بعض أشعار مجموعة من الشعراء العرب القدامى كالبحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، وذلك من أجل رصد مدى التحولات على مستوى المفهوم أو بعض جزئياته كمحاسنه وعيوبه ومرادفاته ومقابلاته من خلال تطبيق منهج الدراسة المصطلحية التي تعتمد الوصفية والمقارنة والتحليل.

الكلمات المفتاحية: المصطلح، الصنعة، عبد الرحمن شكري، النقد، الشعر.

Abstract:

In this article, we aim to study the term “linguistic craft ” in the critical discourse of Abd al-Rahman Shukri, one of the pioneers of modern Arabic poetry, as it is a heritage critical term that the critic has employed in approaching some of the poems of a group of ancient Arab poets such as al-Buhturi, Abu Tammam, al-Mutanabbi and others, in order to monitor the

1جامعة الوادي، maouche-mseddik@univ-eloued.dz

extent of transformations at the level of the concept or some of its parts, such as its advantages, disadvantages, synonyms and antonyms, through the application of the terminological study approach that depends on descriptive, comparative and analysis

Keywords: Terminology, linguistic craft, Abd al-Rahman Shukri, criticism, poetry..

*** *** ***

المؤلف المرسل: محمد الصديق معوش maouche-mseddik@univ-eloued.dz

مقدمة:

يعدّ عبد الرحمن شكري أحد المجددين في شعريتنا العربية الحديثة وقد جمع بين الإبداع الشعري والتنظير النقدي، فقد عبر عن آرائه النقدية في مقدمات دواوينه والمقالات التي كان ينشرها في الصحف آنذاك، ومن ضمن ذلك دراسته لمجموعة من أشعار العرب القدامى أمثال البحتري وأبي تمام والشريف الرضي والمتنبي وغيرهم، فجاء خطابه النقدي في تلكم المقدمات والمقالات متضمنا جملة من المصطلحات النقدية التي تعكس رؤية شكري إلى الشعر والأسس التي يقوم عليها مفهومه استنادا إلى ثقافته العربية الأصيلة ومرجعيته الرومانتيكية الأوربية، ومن المصطلحات التي تداولها شكري في نقده مصطلح "الصنعة" الذي يعد مصطلحا نقديا تراثيا شاع استعماله عند نقادنا القدامى في مقابل مصطلح "الطبع"، وتكاد تغلب على نقدنا التراثي تلك الرؤية السلبية لظاهرة الصنعة في الشعر العربي، وكون عبد الرحمن شكري يستعمل هذا المصطلح في خطابه النقدي الحديث يحرضنا على طرح تساؤل مفاده: ما مفهوم عبد الرحمن شكري للصنعة؟ وما موقفه منها؟ وما التحولات التي تتجلى على مستوى المنظومة المفاهيمية لمصطلح "الصنعة" عنده؟

ومحاولة منا للإجابة عن هذه التساؤلات سندرس في هذا المقال مصطلح "الصنعة" دراسة مصطلحية تهدف إلى بناء منظومة مفاهيمية للصنعة ترتكز على تعريفها من خلال

وصف مفهومها وذكر صفاتها وخصائصها، ثم علاقاتها بالمرادفات والمقابلات، وكل ذلك من خلال السياقات الاستعمالية في خطاب شكري النقدي.

1.تعريف "الصنعة":

1.1:لغة:

يقول ابن فارس (395ه) عن مادة (صنع): "الصاد والنون والعين أصل صحيح واحد، وهو عمل الشّيء صنعا"[1].

وقال الخليل (170ه) : "وفرس صنيع قد صنعه أهله بحسن القيام عليه، تقول: صنع الفرس، وصنع الجارية تصنيعا، لأنه لا يكون بأشياء وعلاج"[2].

وقال ابن دريد (321ه): "رجل صنع إذا كان حاذقا بما يعمله"[3].

وقال الزمخشري (538ه): "وسيف صنيع: يتعهد بالجلاء"[4].

وهكذا فإنّ المعاني اللغوية للصنعة أو مادتها تحيلنا إلى: العمل والتهيئة بحسن القيام والحذق والتعهد بالتهذيب، فهناك إذن جهد يبذل من أجل بلوغ الجودة والجمال.

2.1: اصطلاحا:

1.2.1. في اصطلاح النقاد القدامى:

انتبه النقاد منذ القديم إلى ظاهرة الصنعة في الشعر العربي فقد سموا قصائد زهير بن أبي سلمى بالحوليات لأنه يمكث زمنا ينقحها ويثقفها، وسموا عبيد الشعر لمن يثقفون أشعارهم ويصقلونها، وفي الخطاب النقدي القديم نجد خلطا بين التكلف والصنعة، كما نجد رؤية سلبية تكتنف الصنعة في الشعر باعتبار شعر الطبع هو المثال الأعلى والأفضل رغم أن شعر الصنعة متعهد بالتجويد والتثقيف، فعندما عاب الأصمعي شعر الحطيئة، وحين قيل له شيء في ذلك، قال: "وجدت شعره كله جيدا فدلني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع، وإنما الشاعر المطبوع هو الذي يرمي بالكلام على عواهنه جيده ورديئه"[5]، فرغم إقرار الأصمعي بجودة شعر الصنعة إلا أنه يفضل عليه شعر الطبع الذي يتضمن الجيد والرديء.

وهذا ابن قتيبة لا يفرق بين التكلف والصنعة فيقول: "ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوّم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة... والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر البيت عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع، ووشي الغريزة"[6].

ويقول ابن رشيق: "واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين من القصيدة، فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع"[7].

بينما نرى مع البغدادي بعضا من الثناء على الصنعة إذ يقول: "إنّ أكثر الشعراء المحدثين ذهبوا إلى أنّ أحسن الشعر ما كان أكثر صنعة وأن يتوخى من البلوغ في تجويده النهاية المطلوبة"[8].

وما نلاحظه في النقد التراثي أنّ مفهوم الصنعة يشير إلى جهد مبذول من قبل الشاعر من أجل تجويد شعره وتهذيبه بطول المراجعة والتأمل، كما نلاحظ التباسا لدى بعض النقاد بين الصنعة والتصنع والتكلف.

2.2.1. في اصطلاح النقاد المحدثين:

والملاحظ في العصر الحديث أن أغلب النقاد تداولوا مصطلح "الصنعة" بمفهومه التراثي حين تناولوا الشعر القديم، وحين هاجموا أيضا شعر التقليد فوصفوه بالصنعة والتكلف، وسنأخذ في هذا الباب ثلاثة نقاد هم العقاد والمازني وطه حسين تمثيلا لا حصرا...

1.2.2.1: عند العقاد:

ورد مصطلح الصنعة في معظم مؤلفات العقاد في سياقات مذمومة، وقد جعل التخلّص منه شعارا لمذهبه الجديد فقد قال في مقدّمة كتاب "الديوان": " وأقرب ما نميّز به مذهبنا أنّه مذهب إنسانيّ مصريّ عربيّ: إنسانيّ لأنّه من ناحية يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوّهة"[9]، وذلك لأنّ الصناعة تشويه للترجمة عن الطبع، وهي من أهمّ ركائز التقليد لأنّها " نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء، ومن عادة الصانع أن

يحتاج إلى النّموذج والأستاذ فأقاموا المتقدّمين أساتذة واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدّلون فيها..."[10].

2.2.2.1: عند المازني:

نجد المازني يعيب على مهيار التصنّع والتكلف، ورأى أنّ سبب ذلك ضعف العاطفة وضعف الباعث إلى قول الشعر، ومن كان هذا حاله لجأ إلى الصنعة ليوهم بوجود العاطفة والمعنى، وهذا معنى قوله: " كلام مصقول ليّن الانحدار، تستطيع أن تعرف مقدار الصنعة ومبلغ الصّقل فيه إذا نثرته وتأمّلت ما تحاشاه الشّاعر من الألفاظ مثل مخرجه مكان مسلكه، وهو بعد إذا تدبّرته لم تشعر أنّ وراءه شيئا من العاطفة ولا من المعنى، وغاية ما في الأمر أنّ صاحبه أراد القول في هذا المعنى بغير باعث من النّفس فهو عبث محض، ولمّا كان الشّاعر من أعوزته العاطفة هنا ونقصته البواعث فقد لجأ إلى الاحتيال والصّنعة"[11].

فالصنعة عند المازنيّ هي مخالفة الطبع بالتكلّف والاحتيال لمداراة ضعف العاطفة وضعف الباعث الشعريّ، وتأثيرها على الشعر في الذهاب بحلاوته وعذوبته.

3.2.2.1: عند طه حسين:

وهذا طه حسين يبين مفهوم الصنعة من خلال وصفه لمدرسة أوس بن حجر وتلامذتها بأنها تعتمد الأناة والروية، وتقاوم الطبع والاندفاع في قول الشعر مع السجية، فكثر عندها التشبيه والمجاز والاستعارة، واتكأت في وصفها على التصوير المادي، وأن يأخذ الشاعر نفسه بالتجويد والصنعة والتنقيح.[12]

3.2.1: في اصطلاح عبد الرحمن شكري:

في البداية يقر شكري بأن الصنعة هي إحدى طريقتي قول الشعر، وأنها طريقة الأساتذة لا طريقة العباقرة، يقول: "فالشعر طريقتان لا بد من إحداهما أو كلتيهما: طريقة أهل العبقرية، صغرت العبقرية أو عظمت وطريقة أساتذة الصنعة" [13].

ثم بين أنّ الصنعة في الشعر تشبه طريقة عمل البناء أو الفنان الذي يحتاج إلى أدوات، وأدوات صنعة الشاعر هي: الحفظ، والاستعانة بكتب الأدب والمعاجم، يقول: "إذا

سعى الشاعر إلى الشعر عمدا بمذكرة وذاكرة قوية مقيدا كل الأساليب العذبة التي يمكنه أن يعبر بها عن معنى من معاني موضوعه مستجمعا لتلك المعاني مستعينا بكتب اللغة والأدب والمعجم فيكون مثله مثل من يهيئ أدوات العمارة أمامه قبل أن يبني القصر الفخم، وهذه طريقة أساتذة الصنعة"[14].

كما يبين شكري أنّ هناك فرقا بين الصنعة والتصنع الذي هو التكلف، وهو بذلك يتجاوز الخلط بين المفهومين، فيقول "ولا بدّ أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول أنهم ينبغي أن يثقلوا قولهم بالأساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فإن الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران، ولا يعرف الفرق إلا بالاطلاع على العصور المختلفة"[15].

ومن هنا يتبين أنّ مفهوم الصنعة عند شكري يعني تعمد قول الشعر وذلك بالاعتماد على حفظ الأساليب الجيدة وسعة الاطلاع وامتلاك ثروة لغوية كبيرة دون الوقوع في مزالق التكلف والتصنع.

2: صفات "الصنعة":

تكملة لمفهوم "الصنعة" عند عبد الرحمن شكري نتعرض لصفات المصطلح من حيث النعوت أو المحاسن ومن حيث العيوب، ونبدأ بالمحاسن حيث أكثر الناقد من ذكرها، وهي:

1.2 : النعوت (المحاسن):

1.1.2: الفلتة والندرة:

ورد هذا النعت في وصف صنعة أبي تمام التي لا يبلغها الشريف الرضي، وبين شكري أن فلتات الصنعة وندرتها تكمن في الإتيان بالأبيات النادرة التي تؤثر في المتلقي تأثيرا بالغا، يقول: "ولا يضارع الشريف أبا تمام فيما يتقنه من فلتات الصنعة النادرة التي تأتي بالأبيات الفذة الخالبة الآخذة بمجامع القلوب وتشعل الخيال"[16].

2.1.2: الحمد:

تحمد الصنعة حسب شكري إذا كانت ذات طابع وجداني مؤثر في النفس وليست تلك تتكئ على الزخرف اللفظي، يقول: "ففي هذين البيتين استخدم النداء والإخبار بالتحقيق والأمر والنفي كلها بصيغة وجدانية تؤثر في النفس، فهذه الصنعة اللفظية المحمودة لا الجناس والألاعيب اللفظية التي أولع بها معاصروه"[17].

3.1.2: الطلاوة:

استعمل شكري هذا النعت في المفاضلة بين صنعة البحتري وصنعة المتنبي، حيث جعل البحتري أوفر نصيبا من المتنبي في طلاوة الصنعة، يقول: "فالبحتري أكثر منه (المتنبي) نصيبا من طلاوة الصنعة"[18].

4.1.2: الطبيعية:

كلما اقتربت الصنعة من الوجدان فأثرت فيه وأقنعته فهي أقرب إلى الطبع والطبيعة، لذلك يقول عن بعض الأبيات: "وهذه صيغ لفظية وصنعة لفظية لا يحس القارئ أنها صنعة، وهي صنعة الطبع التي تقنع الوجدان"[19].

ويقول أيضا: "ومن أجل أن الشريف شاعر الوجدان كان أقرب شعراء عصره إلى الأقدمين، وكان بدوي النزعة وإن كان أخذ بنصيب من الصنعة العباسية لإعظام أثر المناجاة أو النداء أو الاستفهام أو النفي الوجداني في شعره، فإنه يستخدم هذه الصيغ البيانية ويتعرف وسائل الصنعة في تكرارها وموقعها، ولكنها صنعة طبيعية لا تحس أنها صنعة، وهي لا تنافس الوجدان بل تقوي أثره"[20].

5.1.2: الحلاوة:

وردت هذه الصفة لصنعة البحتري، حيث بلغ من إتقانه للصنعة أن صار لها حلاوة تؤثر في النفوس كما يؤثر شعر العاطفة، يقول: "ونتذوق البحتري كأنه ممثل قدير يلوك حلو الكلام ويتأثر به وينتشي بحلاوة الصنعة حتى تخلق له الصنعة عواطف فنية كما في حياة بعض كبار الممثلين"[21].

ويقول أيضا: "لا شك أنّ ابن الرومي كان أكثر ابتداعا وكان يجيد الصنعة ولكن للبحتري قطعا لا يستطيع ابن الرومي محاكاتها في حلاوة الصنعة ولا سيما في المدح"[22].

وقد جمع بين سهولة المتناول والحلاوة في مثل قوله: "وفي صنعة عتابه كما في صنعة مدحه حلاوة وسهولة المتناول، وليس فيها اللجاجة الفكرية التي بذلها ابن الرومي في قصيدته في العتاب"[23].

وهي هنا أيضا تغطي على التصنع والمحاكاة: "ولكن حلاوة الصنعة فيه تغطي على المحاكاة وتختلط الحقيقة والخيال فيه"[24].

وبين أيضا أنّ الحلاوة في صنعة البحتري كانت سببا في مقبوليته لدى الممدوحين وإيثارهم له، يقول: "ومدح البحتري كان أسهل متناولا، ولعل هذا وحلاوة صنعته مما جعله مسعودا لدى الممدوحين أكثر من ابن الرومي"[25].

6.1.2: الإقناع:

تكون الصنعة مقنعة حسب رأي شكري إذا اجتمع لدى الشاعر الخيال والإحساس والذكاء والعقل والبصيرة إلى جانب الصنعة اللفظية، يقول عن أبي تمام: "والجيد من شعره يجمع بين القوة والحلاوة وإقناع الصنعة الفنية، وهي ليست صنعة ألفاظ فحسب بل صنعة ألفاظ وخيال وإحساس وذكاء وعقل وبصيرة"[26].

7.1.2: النشوة:

قال في المقارنة بين أبي تمام والمتنبي: "ولكن أبا تمام كان عنده من نشوة الصناعة البيانية أكثر مما كان للمتنبي"[27]، فالشاعر المنتشي الطرب يضفي جمالا مميزا على صنعته.

8.1.2: الفخامة:

ورد هذا النعت في وصف رثاء أبي تمام حيث تغلب عليه فخامة الصنعة بألفاظها وصورها على عكس رثاء الوجدان الذي تظهر فيه الحرقة واللوعة، يقول: "وأكثر رثائه (أبي تمام) على هذا النمط: رثاء صنعة فخمة رائعة لا رثاء حرقة ولوعة، ولا رثاء وجدان"[28].

كذلك الأمر مع البحتري إذا لم يتكلف فإن صنعته تأتي فخمة، يقول معلقا على إحدى قصائده: "ولكن المشهود في القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لا عمق العاطفة، والحق أن البحتري إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهي في بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح"[29].

وأيضا حين وصف الشعراء العباسيين ومن جاء بعدهم حيث قال: "وكانت تغلب على شعرهم جودة الصناعة والتأنق فيها وفي استنباط الأخيلة والتشبيهات وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير، ثم بعد هذا العصر ضعف الأداء وضعفت القدرة على الإتيان بالصناعة الفخمة الصادقة، وكثرت المبالغة والمغالطة اللفظية والمعنوية"[30].

ويبدو أن الفخامة تأتي لتغطية ضعف العاطفة وسطحيتها فتغلب الأناقة على الشعر.

9.1.2: الجودة:

ورد هذا النعت عند شكري في وصفه لصنعة البحتري حيث قال: "ويمتاز البحتري بجودة الصناعة وكثيرا ما يزن المعنى"[31]، ومقياس جودة الصنعة يتمثل في بلوغها مرتبة شعر العاطفة والوجدان، يقول: "وقد بلغت جودة الصنعة في شعر البحتري مبلغا جعلها تحاكي العاطفة والوجدان كما ترى في بعض غزله،...، ولكن لو كان كل ما في شعر البحتري حلاوة في الصنعة لما حفل به ابن الرومي قدر ما حفل به، وأما إتقان صناعة البحتري محاكاة صدق العاطفة فهي صفة كبار الفنانين"[32].

كما استعمل شكري هذا النعت في وصف الشعراء العباسيين، يقول: "وكانت تغلب على شعرهم (العباسيين) جودة الصناعة والتأنق فيها وفي استنباط الأخيلة والتشبيهات وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير"[33].

كما أن جودة الصناعة تتمثل في الفخامة والعظمة كما في بعض مراثي أبي تمام بخلاف مرثيته لابنه التي كانت شعر عاطفة قاهرة خالية من جودة الصنعة، يقول: "والغريب أن له قصائد في الرثاء عديدة أفخم وأعظم من رثائه لابنه الوحيد ولعل العاطفة قهرته ومنعته من إجادة الصنعة وبددت فوتها فيه"[34].

10.1.2: العلو:

علو الصنعة يتمثل في ارتقائها إلى مصاف شعر الوجدان والعاطفة كما في صنعة مسلم بن الوليد: "وقد فضل مسلم أيضا الصنعة الشعرية العالية الصادقة"[35] 165 وكما وصف بها أيضا (نونية ابن زيدون) "وهي تجمع بين علو الصنعة وصفاء الوجدان"[36].

وكذلك ذكر هذه الصفة في تعليقه على أحد الشعراء: "وهو وصف على أي حال لا يطعن في علو صنعته" [37].

11.1.2: الجلال:

جلال الصنعة هو مقابل للسهولة والعفوية التي نجدها في شعر العاطفة، يذكر: "وقد استجاد المبرد في كتابه (الكامل) مرثية إبراهيم بن المهدي في ابنه وهي من شعر العاطفة السهل المآخذ الخالي من جلال الصنعة"[38].

12.1.2: البهجة:

أيضا هذا النعت لصنعة البحتري: "وإن كان البحتري أوفر نصيبا من بهجة الصنعة"[39].

13.1.2: الروعة:

وتتصف الصنعة بالروعة إذا بعدت عن التكلف، لذلك نجده يثني على البحتري كلما فعل ذلك: "ولكن المشهود في القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لا عمق العاطفة، والحق أن البحتري إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهي في بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح"[40].

14.1.2: الصدق:

وصدق الصنعة يتمثل في قدرتها على جعل المبالغة بديعة ورائعة وصادقة، يقول: "والحقيقة أن المبالغة سواء أكانت في الرثاء أو في الغزل أو في أي باب آخر من أبواب الشعر هي في شعر العبقري الصادق الصنعة وفي شعر الذي تسيره العاطفة المالكة له من أبدع وأروع وأصدق ما يقال"[41].

كما وصف بهذا النعت الصنعة التي ارتضاها الشاعر مسلم بن الوليد، قال: "وقد فضل مسلم أيضا الصنعة الشعرية العالية الصادقة"[42].

15.1.2: الحذق والذكاء:

الحذق يشير إلى الإتقان، والذكاء هو قدرة الصنعة على إخفاء مبالغاتها والإقناع بها، يقول عن المتنبي: "وله في رثاء عمة عضد الدولة بجانب الحكمة العالية مغالطات من ذكاء الصنعة والحقيقة هي أنّ الشعر في هذا العصر بدأت تختلط فيه مبالغة العاطفة والصنعة الحاذقة العالية بمبالغة المغالطات الفكرية واللفظية"[43].

2.2: العيوب:

1.2.2: المبالغة:

المبالغة أحد عيوب الصنعة، وتعني الإفراط في حبّ الاختراع والتوليد وتمحل التشبيهات والصور، وهذا حسب رأيه ما وقع فيه أبو تمام، وأمنه الشريف الرضي، يقول في ذلك: "وأمن الشريف زلل المبالغة في الصنعة الذي قد يقع فيه أبو تمام إذا أفرط في حبه للاختراع والتوليد وإتيان ما لم يأت به أحد من التشبيه أو غيره من صيغ الصنعة"[44].

كما أن المبالغة في الصنعة تعني مخالفة المنطق، يقول: "ليس من منطق العقل ولا هو عكس المنطق الناشئ من مبالغات أهل الصنعة المزيفة"[45].

كما أنها الكذب الذي يدل على فتور العاطفة، يقول مقارنا بين صنعة العباسيين ومن جاء بعدهم: "وكانت تغلب على شعرهم (العباسيين) جودة الصناعة والتأنق فيها وفي استنباط الأخيلة والتشبيهات وبعضهم كانت تغلب عليه نزعة التفكير، ثم بعد هذا العصر ضعف الأداء وضعفت القدرة على الإتيان بالصناعة الفخمة الصادقة، وكثرت المبالغة والمغالطة اللفظية والمعنوية، وقد يلتبس على القارئ نوع مبالغة العاطفة القوية، ونوع مبالغة الصنعة الكاذبة التي تنم عن فتور العاطفة ونضوب العبقرية"[46].

. 2.2.2: العبث:

ورد هذا العيب بخصوص صنعة أبي العلاء المعري، ويعني بذلك التلاعب بالجناس ولزوم ما لا يلزم، يقول عنه: "ولعله في صميم قلبه كان يحب عبث الصناعة بدليل ميله إلى الجناس والتزام ما لا يلزم"[47].

. 3.2.2: الفتوروالتكلف:

ويكون هذان العيبان للصنعة عندما تتغلب على العاطفة، يقول: "ولكنه مع ذلك لا يخلو من أشياء فيها فتور الصنعة وتكلفها عندما تكون الصنعة لعاطفته الفنية ومنافسة لها بدل أن تكون زميلتها أو خادمتها"[48].

. 4.2.2: اللجاجة الفكرية:

نفى شكري هذا العيب عن صنعة البحتري وأثبته لصنعة ابن الرومي، يقول: "وفي صنعة عتابه كما في صنعة مدحه حلاوة وسهولة المتناول، وليس فيها اللجاجة الفكرية التي بذلها ابن الرومي في قصيدته في العتاب"[49].

. 5.2.2: المغالطة:

ورد في قوله: "وهذا من الرثاء الذي تتفق فيه مغالطة العاطفة ومغالطة الصنعة"[50].

. 6.2.2: الكذب:

كذب الصنعة دليل على سوء الشعر، يقول: "وأما إذا رأيته وأكثره صنعة كاذبة فاعلم أنه شرّ الشعر"[51].

كما أن المبالغة دليل على كذب الصنعة، يقول: "وقد يلتبس على القارئ نوع مبالغة العاطفة القوية، ونوع مبالغة الصنعة الكاذبة التي تنم عن فتور العاطفة ونضوب العبقرية"[52].

3: علاقات مصطلح "الصنعة":

1.3 . المرادفات: من المرادفات التي استعملها شكري لمصطلح الصنعة ما يلي:

1.1.3: الصناعة:

وهذا المصطلح استعمله خاصة مع أبي تمام، وكأنه يقصد بها صنعة البيان على وجه الخصوص، يقول: "وقد كان لأبي تمام أيضا نصيب وافر من هذا الطرب الفني إلا أن أبا تمام كان يدفعه طرب الصياغة والصناعة البيانية أحيانا إلى المغالاة في أساليبه البيانية من استعارات وتشبيهات"[53].

وقال أيضا: "وقد سبقه (أبو تمام) إلى صناعة البيان بشار ومسلم والحسن بن هانئ، ولكنه ظهر بها ظهورا كبيرا وحاكاه البحتري وغيره"[54].

وقال: "وكان (أبو تمام) حقيقا بسبب كثرة إجادته تلك الصناعة أن يسمى شيخ البيان"[55].

. 2.1.3: التأنق اللفظي:

وقد ورد هذا المقابل في معرض كلامه عن أبي نواس وما يميز صنعته، يقول شكري: "ولعلّ طربه بفنه وهو طرب نفساني هو الذي غطى على تأنقه اللفظي في كثير من شعره"[56].

2.3: المقابلات:

1.2.3: الطبع:

قال يقارن بين مهيار الدمشقي والشريف الرضي: "وعلى أي حال فإن أستاذه الشريف أكثر طبعا"[57].

. 2.2.3: العاطفة:

يضع شكري مصطلح العاطفة مقابل مصطلح الصنعة معلقا على إحدى قصائد البحتري باعتبار أن العاطفة تدفق تلقائي عفوي، بينما الصنعة جهد وتعمد وإعمال،

يقول: "ولكن المشهود في القصيدة روعة الصنعة وفخامتها لا عمق العاطفة، والحق أن البحتري إذا ملك صناعته ولم يتكلفها أتى بها وهي في بهجتها وحلاوتها حقيقة بالمدح"[58].

وعندما بين أن مقياس جودة الصنعة هو بلوغها مرتبة العاطفة دليل على أنهما ليسا واحدا، يقول: "وقد بلغت جودة الصنعة في شعر البحتري مبلغا جعلها تحاكي العاطفة والوجدان كما ترى في بعض غزله،...، ولكن لو كان كل ما في شعر البحتري حلاوة في الصنعة لما حفل به ابن الرومي قدر ما حفل به، وأما إتقان صناعة البحتري محاكاة صدق العاطفة فهي صفة كبار الفنانين"[59].

3.2.3: الوجدان:

يذكر أيضا مصطلح "الوجدان" مع "العاطفة" كمقابلين لـ "الصنعة": "وقد بلغت جودة الصنعة في شعر البحتري مبلغا جعلها تحاكي العاطفة والوجدان كما ترى في بعض غزله،...، ولكن لو كان كل ما في شعر البحتري حلاوة في الصنعة لما حفل به ابن الرومي قدر ما حفل به، وأما إتقان صناعة البحتري محاكاة صدق العاطفة فهي صفة كبار الفنانين"[60].

4.2.3: التكلف والتصنع:

إذا كانت "الصنعة" عند شكري تعني الاجتهاد في تجويد الشعر بعدة أدوات كالذاكرة والاطلاع ... فإن التصنع والتكلف يناقضانها في الجوهر، ولكن لا يدرك الفرق بينهما إلا بسعة الاطلاع، يقول: "ولا بدّ أن يذكر الشبان أن الشعر صنعة وأن النثر صنعة وليس معنى هذا القول أنهم ينبغي أن يثقلوا قولهم بالأساليب حتى يصبح قولهم كالكابوس فإن الصنعة شيء والتصنع والتكلف أمران آخران، ولا يعرف الفرق إلا بالاطلاع على العصور المختلفة"[61].

ثمّ يبين بمثال تطبيقي حقيقة "التكلف" فيقول: "ومن دلائل التكلف أحيانا في شعر مهيار أنّ له قصيدة في الرثاء يرثي بها أهل البيت رضي الله عنهم ومطلعها غزل وهو: (في الظباء الغادين أمس غزال) وجاء في غزلها ذكر الملال والدلال وما إلى ذلك، وهذه أقوال لا تستقيم مع الرثاء عموما ورثاء أهل البيت خصوصا"[62].

خاتمة:

لقد سعينا في هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة مصطلحية لمفهوم "الصنعة" عند عبد الرحمن شكري ولا ندعي أننا قدمنا قراءة مستوفية في ذلك نظرا لضيق المقام ولعلنا نستدرك ذلك في مناسبة أخرى، ونستطيع رغم ذلك الخروج بنتائج نذكر منها:

. مفهوم الصنعة هو مفهوم مقابل لمفهوم الطبع الذي يعبر عنه شكري غالبا بالعاطفة والوجدان بمعنى التدفق التلقائي والعفوي للشعر.

. شعر العاطفة والوجدان يبقى عند شكري مقدما على شعر الصنعة، ولكن الصنعة قد تبلغ مرتبة العاطفة والوجدان إذا توفرت شروط معينة.

. الذي لاحظناه في متن الدراسة أن الصفات المحمودة للصنعة وردت أكثر من صفات الذمّ، وهذا يخالف إلى حد كبير نظرة النقد التراثي السلبية لظاهرة الصنعة.

. الصنعة عند شكري لا تكمن في الإكثار من الصور البيانية والإغراب في اللفظ والعبارة فحسب بل هناك صنعة في الخيال والإحساس والذكاء...

.يفرق شكري بين الصنعة والتصنّع والتكلّف، فالتكلّف والتصنّع مذمومان، والصنعة قد تكون محمودة إذا بلغت من الجودة ما يجعلها تحاكي شعر الطبع وإن تبقى على أيّة حال أقلّ درجة من العاطفة والوجدان، ولكن التفريق بينهما ليس بالأمر الهيّن، فإنّه يتطلّب ثقافة أدبية واسعة.

.الصنعة المذمومة عند شكري هي المغالاة في حبّ الاختراع والتوليد وإغراب التشبيه والمعنى مع الولع بالجناس والألاعيب اللفظية من غير تدفق العاطفة والوجدان.

.شعر الصنعة مهما كانت جودته لن يبلغ مرتبة شعر العاطفة والوجدان (المطبوع) لأنّ شعر الصنعة محدود الفضاء من جميع النواحي، بينما شعر الطبع أقرب إلى جوهر الإنسان لذا لن تؤثر فيه الترجمة لأنّ لغته الأساسية لغة العاطفة والوجدان وهي لغة إنسانية وليست إقليمية، يقول في ذلك: " وقد كان من رأينا دائما أنّ شعر العاطفة والوجدان يتقارب في جميع اللغات، وإنما الذي يتباعد في اللغات شعر الصنعة والمحاكاة لأنّ هذا أساسه العرف والاصطلاح والذوق الإقليميّ، أمّا شعر العاطفة والوجدان فهو

واحد في كلّ إقليم، وإنّك لو نقلت الشعر الذي استشهدنا به من شعر قيس بن الملوّح أو قيس بن ذريح إلى اللغات الأوربية لطرب له القرّاء كما يطرب قراء العربية إذا نقل إليها شعر العاطفة والوجدان من اللغات الأوربية نقلا صحيحا لا سخيفا"[63].

.لإجادة الصنعة لابد من: ذاكرة قوية تقيد كل الأساليب العذبة والاستعانة بكتب اللغة والمعاجم، والانتشاء بالحياة، والحذر والإحجام، والطرب النفساني.

.ومما يسيء الصنعة: الأساليب الثقيلة، والإفراط والمغالطة، والجرأة.

.ولتمييز جودة الصنعة من رداءتها لابدّ من الاطلاع على العصور الأدبية المختلفة.

.تراث عبد الرحمن شكري النقدي لا يزال حقلا خصبا لدراسات في مصطلحاته النقدية مساهمة في بناء معجم المصطلحات النقدية الحديثة.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

الهوامش:

[1] ابن فارس، المقاييس، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، ج:3، ص 313.

[2] الخليل، العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2003، ج:2، ص417.

[3] ابن دريد، جمهرة اللغة، تح: رمزي بعلبكي، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1987، ص 888.

[4] الزمخشري، أساس البلاغة، تح: باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1998، ج:1، ص 561.

[5] محمد عزام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشرق العربي، بيروت، ص 226.

[6] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح: أحمد شاكر، دار المعارف، ج:1، ص 77، 78، 90.

[7] ابن رشيق، العمدة، تح: محمد محي عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط2، مصر، 1955، ج: 1، ص 130.

[8] البغدادي، قانون البلاغة، تح: محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، ص 145.

[9] العقّاد والمازني، الديوان في الأدب والنقد، دار الشعب، ط4، القاهرة، 1996، ص 4.

[10] نفسه، ص 41.

[11] نفسه، ص 84.

[12] ينظر: طه حسين، الأدب الجاهلي، مطبعة فاروق، ط3، القاهرة، 1933، ص 288.

[13] عبد الرحمن شكري، دراسات في الشعر العربي، تح: رجب البيومي، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 1994، ص 231.

[14] نفسه، ص 230.

[15] نفسه، ص 183.

[16] نفسه، ص 41.
[17] نفسه، ص 43.
[18] نفسه، ص 63.
[19] نفسه، ص 43.
[20] نفسه، ص 42.
[21] نفسه، ص 77.
[22] نفسه، ص 112.
[23] نفسه، ص 122.
[24] نفسه، ص 112.
[25] نفسه، ص 112.
[26] نفسه، ص 97.
[27] نفسه، ص 98.
[28] نفسه، ص 103.
[29] نفسه، ص 121.
[30] نفسه، ص 156.
[31] نفسه، ص 111.
[32] نفسه، ص 112.
[33] نفسه، ص 156.
[34] نفسه، ص 167.
[35] نفسه، ص 165.
[36] نفسه، ص 155.
[37] نفسه، ص 129.
[38] نفسه، ص 163.
[39] نفسه، ص 122.
[40] نفسه، ص 121.
[41] نفسه، ص 156.
[42] نفسه، ص 165.
[43] نفسه، ص 169.
[44] نفسه، ص 41.
[45] نفسه، ص 48.
[46] نفسه، ص 156.
[47] نفسه، ص 109.
[48] نفسه، ص 114.

[49] نفسه، ص 122.

[50] نفسه، ص 174.

[51] نفسه، ص 239.

[52] نفسه، ص 156.

[53] نفسه، ص 35، 36.

[54] نفسه، ص 95.

[55] نفسه، ص 95.

[56] نفسه، ص 36.

[57] نفسه، ص 53.

[58] نفسه، ص 121.

[59] نفسه، ص 112.

[60] نفسه، ص 112.

[61] نفسه، ص 183.

[62] نفسه، ص 53.

[63] نفسه، ص 151.